مقالة شناختی

مكانة القيم الاجتماعية في أساليب دفاع أبي‌طالب عن النبيﷺ من خلال ديوانه؛ قضايا النسب و القبيلة أنموذجاً

محسن الويري[1]
أحمد هاتف المفرجي[2]

الملخّص

تتناول هذه المقالة مسألة مهمة في حياة العرب قبل وبعد الإسلام ألا وهي القيم الإجتماعية لرفعة مقامها عندهم. وهذه القيم الإجتماعية إنما نتناولها فيما يرتبط بمكانتها عند أبي‌طالبعليه‌السلام في دفاعه عن النبيﷺ وأساليبه في تسخيرها لصالح النبيﷺ ودعوته من خلال أشعاره التي جُمعت في ديوانه. وقد اختصت هذا المقالة ببيان قضايا النسب والقبيلة فقط لا جميع القيم. وكان الإعتماد في كشف هذه القيم ومكانتها وأساليبهعليه‌السلام من خلال ديوانه أي اعتماداً على الشعر لا النثر واقتصر مستوى بيانها عن طريق تناول المفاهيم المرتبطة بقضايا النسب والقبيلة من خلال أشعاره كشفاً لما تمثله في ذهنه وذهن أهل زمانه وكيفية إيرادها في خطاباته ومناسبة ذلك. ومن خلال البحث يتضح بأنه كان يستفيد من قضايا النسب والقبيلة بشكل خاص حفظ فيها حياة النبيﷺ في صغره أمام أهل الكتاب وبعد دعوته أمام نفس قبيلته التي كان يدافع عنه بهم. ومن مصاديق هذه القضايا الأخوة والعمومة اللذان كانا بمستويين؛ أحدهما مباشر والآخر غير مباشر وذلك من قرب النسبة وبُعدها، وكذلك استفادته من الخؤولة. وكانت أساليبه في تسخير هذه القضايا في دفاعه عن النبيﷺ عديدة. منها استفادته من الجانب العاطفي في خطابه مع قومه، ومنها الجانب الإعلامي والعملي، وكذلك مدح الخصال الحميدة وذم القبيحة.

الكلمات المفتاحية

أبوطالبعليه‌السلام، النبيﷺ، قريش، القيم الإجتماعية، التاريخ الإجتماعي

١. أستاذ مشارك في قسم التاريخ، جامعة باقر العلوم، قم.
٢. مدرّس مساعد في جامعة الأديان والمذاهب في قسم التاريخ الإسلامي، قم.

المقدّمة

يحتل الجانب الإجتماعي في حياة كل أمة من الأمم جانبا مهماً ومؤثراً لفهم التطورات الإجتماعية والأحداث العامة لها وتساهم الدراسات في حقل التأريخ الإجتماعي في فهم أعمق وأدق مما هي عليه الدراسات الكلاسيكية التي غابت عنها هذه الدراسات. من أهم أجزاء وعناصر التاريخ الإجتماعي هي القيم الإجتماعية التي قُدمت في علم الإجتماع على أنها «الإحساسات المتجذرة بين جميع أو غالب أفراد المجتمع والتي يحترمها الجميع». [٣] وبهذا يتضح بأن القيم الإجتماعية تسود أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لكونها ضابطاً ومحدداً لسلوك أفراده لدرجة أن مخالفة تلك القيم وخرقها يعتبر شذوذاً إجتماعياً وهو بدوره قبيحاً ومعيباً، ويُقَبح ويُعاب فاعله بل وقد يُعاقب ويُقاطع كذلك وفي مجتمع قبلي كمجتمع العرب قبل الإسلام خصوصا. وإن قضايا النسب والقبيلة تشكل عمدة أجزاء القيم الإجتماعية بل ونظامه الذي يسير وفقه ويحدد وجهته، ولشدة أهميتها فإنهم كانوا يعتنون بتأريخهم عن طريق تناول قضايا النسب والتفاخر بالقبيلة ومآثرها ومواقفها وما سلكته من سلوك.

والأمر الذي من اللائق الإشارة اليه هو أن التاريخ الإجتماعي لا يُعنى بدراسة الأفراد وإنما الجماعات. والمبرر لدراسة الأفراد ضمن سياق التاريخ الإجتماعي يكمن في صورتين؛ الأولى: أن يكون هؤلاء الأفراد بدرجة من الأهمية تكشف دراستهم بطبيعة الحال عن الجوانب الإجتماعية لمجتمع عصره. والسبب هو كون هؤلاء الأفراد يمثلون شريحة من المجتمع، سواء قلّت هذه الشريحة أو المجموعة أم كثرت كزعيم القبيلة الذي نعلم سلوك قبيلته وموقفها من أحداث قومها من خلال معرفة سلوك أو موقف زعيمها تجاهها في الغالب لأنه يجمع تحت عباءته من هو على رأيه. والثاني: أن تكون دراسة حياتهم في جانبها الإجتماعي لا الفردي، فهنا يرتفع المانع من دراسة الأفراد ضمن سياق التاريخ الإجتماعي. وفي هذه المقالة نتعرض لشخصية من أهم الشخصيات في معرفة التاريخ الإجتماعي لعصره فيما قبل وبعد الإسلام في جوانب عديدة، منها قيمهم الإجتماعية وبالخصوص ما يرتبط بقضايا النسب والقبيلة منها، وهو أبوطالب. ورغم أننا لن نتعرض لسرد سيرة حياته في هذه المقالة وإنما نتعرض لأسلوبه في دفاعه عن النبي اعتماداً على رعاية بعض القيم الإجتماعية. وفي هذه الصورة إضافة الى أننا سنعلم موقفه من القيم الإجتماعية فإننا سنكتشف ذلك عن أبناء مجتمعه، سواء منهم الذين هم تحت عباءته من مطيعيه أم من مخالفيه الذين خرقوا تلك القيم. والسؤال هنا من هو أبوطالب وما هي مكانته بين قومه التي دفعت الشر الكثير عن النبي طيلة حياته؟

٣. مبانی جامعه‌شناسی، ص ٥٨.

الأوّل) لمحات من حيات أبي‌طالب على لسانه من خلال أشعاره

أما بالنسبة لحياته فليس من المناسب تناولها هنا بتفاصيلها المباركة لخروجها عن موضوع المقالة أولاً، ولوجود المقالات المتخصصة بسيرته في هذا المؤتمر ثانياً، ولكثرة ما كُتب فيها من المؤلفات ثالثاً. ولكن بمقدارها البسيط يمكن الإشارة لبعض أحواله المباركة، فنقول:

هو عبد مناف بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر ابن‌مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.[٤]

ووقع الخلاف في اسمه فبعضهم قال بأنه عبد مناف والآخر عمران، كما قيل بأن كنيته هي اسمه[٥] وقيل بأنه عمرو[٦]، والمشهور عند الشيعة بأنه عبد مناف دون غيره. وكانت ولادته قبل البعثة بخمس وثلاثين سنة على نَقل وتوفي في السنة العاشرة منها[٧].

ولا يخفى حتى على غير المتخصص في التأريخ ما لنسبه من المكانة الدينية والإجتماعية عند قريش، بل مكة، بل القبائل العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية وأطرافها. وقد أتاحت له الفرصة لتولي خلافة أبيه ووراثته في مكانته حيث كان سيد قريش بأخلاقه وحكمته ومكانته، وكانت له السقاية في مكة وكان يفخر بذلك وقد فَخِر بها في بعض أبياته منها:

ونحن الصّميم[٨] من‌ذؤابة[٩] هاشم ... وآل قصيّ في الخطوب الأوائل
وكان لنا حوض السّقاية فيهم ... ونحن‌الذّرى[١١] منهم‌وفوق الكواهل[١٢]
فما أدركوا ذحْلاً[١٠] ولا سفكوا دما ... وما حالفوا إلاّ شرار القبائل[١٣]

٤. أعيان الشيعة، ج ٨، ص١١٤.
٥. أعيان الشيعة، ج ٨، ص١١٤؛ الإصابة في تمييز الصحابة، ج٧، ص١٩٦.
٦. تاريخ دمشق، ج٦٦، ص٣٠٧.
٧. أعيان الشيعة، ج٨، ص١١٤.
٨. الصميم من كل شيء: خالصه.
٩. الذؤابة: القسم الأعلى.
١٠. الذحْل: الحقد والعداوة.
١١. الذرى: القمم ومفردها ذروة.
١٢. الكاهل: أعلى الظهر مما يلي الرقبة.
١٣. ديوان أبي طالب، ص٧٠.

وقد كفل النبيﷺ بعد وفاة أبيه ووصايته له بكفالته فأدى الأمانة ودافع بكل وسيلة عن النبي وأحسن في ذلك.

ومن مواضع الخلاف في حياته ما قد يسمى بالشبهة، وهي ليست بشبهة وإنما خطأ تأريخي وإخفاء للحقيقة وهي مسألة اسلامه من كفره. وبالفعل نحن لسنا هنا في مقام الإجابة عن هذه المسألة لوضوحها كعين الشمس التي تنير لمن يبصر دون غيره، ويكفي لإثبات إسلامه إلقاء نظرة في ديوانه ومطالعة سيرته[١٤] في مواضعها المختلفة.

وهناك سؤال جدير بالإجابة وهو هل كان دفاعه عن النبيﷺ لكونه نبياً؟ أم لقرابته؟ الجواب عن هذا السؤال مهم جداً وببساطة يمكن الإدعاء على أنه إنما كان يدافع عن النبي للسببين معاً إضافة الى وصية أبيه له بالحفاظ عليه وكفالته من بعده.

أما دفاعه بسبب القرابة فإنه يتضح بمطالعة هذه المقالة إن شاء الله. وأما كون سبب دفاعه دينياً فهذا سبب له شواهده الكثيرة منها تصريح أبي طالب بذلك ومنها قوله للإجابة عن هذا السؤال بقوله:

يقولون لي: دع نصر من جاء بالهدى وغالب لنا غلاّب كلّ مغالب[١٥]

وقوله:

أ لم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبياً كموسى خطّ في أوّل الكتب[١٦]

وقوله:

أنت الرسول رسول اللّه نعلمه عليك تنزل من ذي العزّة الكتب[١٧]

وقوله الذي يجمع بين السبب الديني والإجتماعي:

يميناً صدقنا اللّه فيها ولم نكن لنحلف بطلاً بالعتيق المحجّب[١٨]

نفارقه حتى نصرّع حوله وما بال تكذيب النبيّ المقرّب[١٩]

فهذه بعض شهادته على نفسه وسيرته كفيلة بإيضاح تلك المعاني والأسباب.

١٤. بالإضافة الى إمكان الإستفادة من ديوانهؑ لإثبات اسلامه. (أنظر: بغية الطالب لإيمان أبي طالب)

١٥. ديوان أبي طالب، ص ٢٣.

١٦. ديوان أبي طالب، ص٢٧.

١٧. ديوان أبي طالب، ص٢١.

١٨. العتيق المحجّب: العتيق المستور وهو الكعبة.

١٩. ديوان أبي طالب، ص٢٧.

وأما كفالته للنبيﷺ بسبب وصية أبيه له فهذا معلوم على أية حال. وقد أشار إلى ذلك نفسه في ديوانه بقوله لأبيه حين أوصاه بالحفاظ عليه:

لا توصني بلازم و واجب[٢٠]

وكذلك قوله:

إنّ الأمين محمّداً في قومه عندي يفوق منازل الأولاد

إلى قوله:

راعيت فيه قرابة موصولة وحفظت فيه وصيّة الأجـداد
ودعوتــه للسّير بين عمومة بيض الوجوه[٢١] مصالت[٢٢] أنجاد[٢٣]

وبالفعل فقد حافظ على النبيﷺ بكل قوة وصرامة وأوصى بنيه وقومه المقربين بذلك. ويأتي في صفحات هذه المقالة ما يشير إلى ذلك ومنها وصيته لولده علي، بقوله:

إنّ الوثيقة في لزوم محمّد فاشدد بصحبته على ايديكا[٢٤]

وليس من المناسب بحال حصر سيرته بهذا النحو والتقصير عن جوانبها المشرقة والمباركة فلذا نترك التعريف المفصل إلى الدراسات الأخرى مما هو مختص بذلك.

ديوانه

بالنسبة لأبي طالب فإنه فصيح اللسان وشديد البيان، وأشعاره وخطبه يدلان على ذلك إضافة إلى كلماته وعباراته الواردة في التاريخ. وبالنسبة لأشعاره فإنها قيلت في مناسبات متعددة، وهي في الغالب تحمل ظرفية عالية جداً لتحديد زمانها التاريخي، بل ومن الممكن الإستفادة منها بعكس ذلك. وذلك بمعرفة الأحداث والوقائع من خلال مطالعتها ودراستها، وهي تحمل مادّة جمّة عن القيم الإجتماعية وهي جديرة بالذكر. وعلى أي حال فإن النسخة التي اعتمدناها هنا هي ما يسمى بـ: «ديوان أبي طالب» لمؤلفه محمّد التونجي. ومن الجدير بالذكر أن أشعاره لها روايتان: الأولى تعود لأبي هفان عبدالله بن أحمد بن حرب البصري النحوي الشاعر المتوفى ٢٥٧ق، والرواية الثانية تعود لعلي بن حمزة البصري التميمي المتوفى ٣٧٥ق، وجمعهما ونشرهما في مجلد واحد السيد محمّد حسن آل

٢٠. ديوان أبي طالب، ص٢٢.
٢١. بيض الوجوه: الكرام.
٢٢. المصالت: الماضون في حوائجهم.
٢٣. ديوان أبي طالب، ص٣٨ـ٣٩.
٢٤. ديوان أبي طالب، ص٦٠.

ياسين. وهناك شرح للديوان قام به الشيخ الأزهري محمّد خليل الخطيب، كما توجد أشعاره متفرقة بحسب المناسبة في كتب السيرة بالخصوص. وعلى أية حالٍ فإن ديوانه بتحقيق التونجي كان وافياً وشاملاً لغالب شعره مع وجود زيادة ونقصان في جملة من الأبيات ولكنه كافٍ لموضوع المقالة.

الثاني) أساليب أبي‌طالب في الدفاع عن النبي ﷺ

قد كان لأبى طالب أساليب مختلفة تكشف عن مستويات من الدفاع، تختلف في مضمونها وطريقة تعامله مع قومه لكسب تأييدهم أو دفع شرّهم، نركّز على بعضها ومنها:

١. الإستفادة من الجانب العاطفي

وليس لنا هنا أن نبسط القول في مدى تأثير الجانب العاطفي ومحاكاة عواطف ومشاعر المخاطَب للحصول على تأييده أو دفع شرّه لأنها من البديهيات. لكن نشير الى بعض ما استفاد منه من خلال أشعاره، ومنها «النصيحة» وكيفية استفادته منها حيث أنه كان يوجّه نصيحته إلى قومه للوقوف مع نبيهم الجديد والذي هو من أنفسهم. ومصداق النصيحة هنا هو حثّهم على النصرة، وأن لا يرتكبوا ما يسوّد تأريخهم وسمعتهم في خذلانه وأشعاره تحمل هذا المعنى إجمالاً. ومن قبيل استفادته من الجانب العاطفي هو «العتب» الذي تكرر في أشعاره وضمّنه فيها صراحة في خطاباته لقومه.[٢٥] كما نلاحظ في هذا الجانب وجود عنصر التعجب من أفعال قومه وذلك إثارة منه لمشاعرهم وأن فعالهم أصبحت تدعو للتعجب. ومن ذلك إبراز تعجبه الصريح بقوله:

يقولون لي: دع نصر من جاء بالهدى ... وغالب لنا غلاّب كلّ مغالب
وسلّم إلينا أحمداً واكفلن لنا ... بنينا ولا تحفل بقول المعاتب
فقلت لهم: اللّه ربّي وناصري ... على كلّ باغ من لؤيّ بن غالب[٢٦]

بل قصيدته التي أولها «تطاول ليلي بهمّ وصب»، تكشف عن أسلوبه ومهارته في حسن استفادته من التعجب ووضع قومه أمام التساؤلات وإلزامهم بمراجعة أنفسهم. كما أنه استفاد في هذا الجانب من «الدعاء» على قومه وإبراز مظلوميته منهم في أبيات ومواضع مختلفة منها قوله:

جزى اللّه عنّا عبد شمس ونوفلاً ... وتيماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما
بتفريقهم من بعد ودّ وألفة ... جماعتنا كيما ينالوا المحارما؟[٢٧]

---

٢٥. أنظر على سبيل المثال قصيدته التي يخاطب قومه فيها في حصارهم في الشعب والتي أولها: تطاول ليلي. (ديوان أبي طالب، ص١٧)

٢٦. ديوان أبي طالب، ص٢٣.

٢٧. ديوان أبي طالب، ص٧٨ـ٧٩.

٢. الإستفادة من الجانب الإعلامي

والمقصود هنا المعنى البسيط وهو الكشف عن خطواته المستقبلية أو ردود أفعاله تجاه تصرفاتهم المتحسَّبة وهي ما لا يُحمد عقباه وذلك عن طريق «التهديد» الذي طالما حفلت به أشعاره. وكان تهديده باستعمال السيف والقتال للذبّ عن النبي كإجراء في قبال فعلهم المحتسَب وبسبب كثرة الشواهد في مسألة تهديداته فإنه يصعب الإتيان بها هنا جميعها بل يصعب انتقاء ما يُعبّر عن قوته. ولتصوير حدّة تهديداته نأتي بأبيات مقتطعة من قصيدتين. منها أربعة أبيـــات مقتطعة من إحدى المطولات في خطابه لقومه من قصائده منها:

كذبتم وبيت اللّه نُبزي[٣١] محمّداً ولمّا نُطاعن دونه ونناضل
ونُسلِمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد اليكم نهوض الرّوايا[٢٨] تحت ذات الصَّلاصل[٢٩]
وحتّى يُرى ذو الضّغن[٣٢] يركب ردعه[٣٣] مـــن الطعـــن فعل الأنكب المتحامل[٣٠]

ومنها قوله:

تُرجّون منّا خِطّ[٣٤] دون نَيلها ضرابٌ وطعنٌ[٣٥] بالوشيج[٣٦] المقوّم[٣٧]
تُرجّون أن نَسخى بقتل محمّد ولم تختضب سُمرُ العوالي[٣٨] من الدّم
كذبتم وبيت اللّه حتّى تَعرّفوا جماجم تلقى بالحطيم[٣٩] وزمزم
وتُقطع أرحام وتَنسى حليلةٌ حليلاً[٤٠] ويُفشى محرم بعد محرم
وينهض قوم فـي الحديد إليكـــم يذبّون عن أحسابهم كلّ مجرم[٤١]

٢٨. الرّوايا: الإبل التي تحمل المياه.

٢٩. الصَّلالة: المزادة يُنقل بها الماء.

٣٠. المتحامل: الجائر. القصيدة مطولة جداً وتصل أبياتها الى ١١٠ بيت بحسب ديوانه الذي بين أيدينا كان قد ضمّنها مفاهيم وقيم اجتماعية عديدة واحتوت على أساليب في دفاعه عن النبي منها التهديد الذي تكرر في أكثر من موضع. (أنظر على سبيل المثال: ديوان أبي طالب، ص٦٣ـ٧٤؛ وموضع الشاهد كانت الأبيات ٣٢ـ٣٥، ص٦٦)

٣١. نُبزى: نُغلب ونُقهر، والمعنى قسماً لن تُغلب بمحمّد ولن نحارب بعد.

٣٢. الضّغن: الحقد.

٣٣. يركب ردعه: يخرُّ على وجهه صريعاً.

٣٤. الخِطّة: الأمر.

٣٥. ضرابٌ وطعنٌ: سيوف ورماح.

٣٦. الوشيج: شجر الرماح.

٣٧. المقوّم: المُعدّل والمثقّف.

٣٨. سُمرُ العوالي: رؤوس الرماح العالية.

٣٩. الحطيم: جدار حِجر البيت.

٤٠. الحليل والحليلة: الزوج والزوجة.

٤١. ديوان أبي طالب، ص٨٦.

وفي الواقع فقد كان للتهديد دوره الفعّال في الحفاظ على النبي وكما كان لتهديده مكاناً ملحوظاً في أساليبه التي وردت في ديوانه فإن لإستفادته من أسلوب «التحذير» قد شغل مساحة منه. وتحذيره لقومه كان يتمثل بذكر عواقب أفعالهم المحتملة كالظلم مثلاً والذي يُفضي الى الندامة وغيرها من العواقب كقوله لقومه:

فمهلاً قومنا لا تركبونا بمظلمةٍ لها أمر عظيم
فيندم بعضكم ويذلّ بعض وليس بمُفلح أبداً ظلـــوم[٤٢]

اضافة الى هذا، فإنه كان من أسلوبه أن يلقي شعره على من يسمع يوصي بـ «تبليغ» رسالته لقومه فيما تحمله من المضامين. وقد تكررت مثل هذه التبليغات في كثير من أشعاره، تمتاز بالحزم في صياغة الأسلوب وانتقاء الكلمات كقوله في بعض قصيدته:

ألا أبلغا عنّي لؤيّاً رسالة بحقّ، وما تغني رسالة مرسل[٤٣]

وكذا العديد من أشعاره حملت هذا التبليغ في كثير من المناسبات،[٤٤] وأسلوبه هذا هو للكشف عن خطواته المستقبلية، أو لشرح الظلم الذي حلّ بهم، أو لعتبه عليهم، أو لتذكيرهم بالقيم الإجتماعية وغيرها من المفاهيم الأخرى.

٣. الإستفادة من مدح باقي الخصال الحميدة وذم الخصال السيئة

في هذا الجانب ستكون الإشارة الى أسلوبه في إثارة بعض القيم الإجتماعية الأخرى، سواء بمدح الحميد منها أم ذمّ الذميم، وللإختصار فإننا نأتي بأقل عدد من شواهد تلك القيم في هذا المقام والتي منها:

«ارتكاب المحارم» والمحارم هنا بمعنى ما يحرم انتهاكه بحق من يُنتَهَك فيه. وهذا التحريم قد يكون دينياً وفق الشريعة التي يدين بها أهلها، وقد يكون من العرف الذي يعد بعض الأفعال كالمحرمات أو يضفي اليها صبغة المحرمات لأهميتها كعداوة العصبة والعمومة وانتهاك القيم الإجتماعية بصورة عامة وما يحتمله المعنى من الأفعال. وإنه لم يغفل مدح حفظ المحارم وعدم انتهاكها وأشار في بيت من قصيدة إلى هذا بقوله:

فما قومنا بالقوم يَغشون ظُلمنا وما نحن فيما ساءَهم بخِفاف[٤٥]
ولكنّنا أهل الحفائظ[٤٦] والنُّهى[٤٧] وعزّ ببطحاء المشاعر[٤٨] واف[٤٩]

---

٤٢. ديوان أبي طالب، ص٨٠.
٤٣. ديوان أبي طالب، ص٧٥.
٤٤. أنظر على سبيل المثال: ديوان أبي طالب، ص٢٧ و٧١.
٤٥. خِفاف: مُسرعين.
٤٦. الحفائظ: حفظ المحارم.
٤٧. الأنكب: المائل.
٤٨. بطحاء المشاعر: مكة.
٤٩. واف: تام. ديوان أبي طالب، ص٥٦.

فهو إنما يفخر ويبلغ قومه بأنه ومن معه من قومه المقربين لا يرتكبون ما من شأنه أن يسوئهم من الفعال، وأنهم أهل لحفظ المحارم والدفاع عنها، وأنهم أهل عزٍ في مكة بخلاف أفعال قومه الذميمة في انتهاك المحارم والتي ذكّرهم بها بأكثر من موضع. منها قوله:

هم انتهكوا المحارم من أخيهم ولیس لهم بغير أخٍ حريم
إلى الرحمن والكرم استذمّوا وكل فَعالهم دَنسٌ ذميم[٥٠]

وتقبيحه لأفعالهم صريح هنا. وقد أوضح بأن مذمتهم دينية واجتماعية فهم مذمومون عند الرحمن وفي نفس الوقت إلى الكرم باعتباره قيمة اجتماعية كما ذمّهم فيما نقلنا سابقاً من أبيات منها:

جزى اللّه عنّا عبد شمسٍ ونوفلاً وتَيماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما
بتفريقهم من بِعـد ودّ وألفةٍ جماعتنا كيما ينالوا المحارما؟[٥١]

وكما نعلم عن رعاية العرب لمفهوم «الرجولة» وكيف أن افتخارهم بـ «السمعة» التي يرثها الرجل والقوم من فعالهم، فإنه لم يغفل هذا الجانب أيضاً وقد ضمّنه في أشعاره بصورة دقيقة. ومن قوله في هذا المقام في خطابه لأبي لهب:

فلا تركبنّ الدهر منه ذمامة وأنت امرؤٌ من خير عبد مناف
ولا تتركنه ما حييت لمُعظِمٍ[٥٢] وكن رجلاً ذا نجدةٍ وعفاف[٥٣]

أي لا ترتكب خطأً يسبب لك السمعة الذمية في الحين أنك امرؤ من خيرة ولد عبد مناف، وانصره ـ النبي ـ وكن رجلاً مدافعاً وشجاعاً وعوناً لإبن أخيك وكن ذا عفاف وبُعد عن كل ما يسيء اليك ويسبب لك السمعة السيئة. كذلك نجد هذا المضمون في مواضع أخرى و نكتفي منها ما يخاطب أخيه أبي لهب أيضاً وذلك بقوله:

ولا تقبلنّ الدهر ما عشت خُطّة تُسبُّ بها إمّا هبطت المواسما[٥٤]

فهو إنما يحاول أن يرسم لأخيه تأريخاً مشرقاً بعد وفاته، وسمعة طيبة، ويبعده عن الذمائم وذلك عن طريق رعايته للقيم الإجتماعية في دفاعه عن ابن أخيهما، وعدم انتهاك المحارم. ومن أساليبه في دفاعه عن النبي إثارة قيمة إجتماعية عند العرب وهي «ذمّ الظلم» وتقبيحه وذلك عن طريق التذكير بتقبيح أسلافه للظلم وعدم ارتضائهم له وذلك بقوله:

وكنّا قديماً لا نُقرّ ظُلامة وندرك ما شئنا ولا نتشدّد[٥٥]

٥٠. ديوان أبي طالب، ص٧٩.
٥١. ديوان أبي طالب، ص٧٨ـ٧٩.
٥٢. مُعظِم: الأمر العظيم.
٥٣. ديوان أبي طالب، ص٥٥ـ٥٦.
٥٤. إمّا هبطت المواسما: مدّة حياتك. ديوان أبي طالب، ص٧٨
٥٥. ديوان أبي طالب، ص٣٥.

وتارة أخرى يذم الظلم بصورة مباشرة، وقد تكرر منه هذا الذم في مواضع كثيرة.[٥٦]

على أية حال فإن ما ذكرنا هنا هي بعض أساليبه في دفاعه عن النبيﷺ ويكفي هذا المقدار لفهم توجّهه إلى أيٍ من قيم مجتمعه التي كانوا يقرّونها فيخاطبهم بها، ويذكّرهم تارة ويهددهم تارة ويرغبهم تارة أخرى.

الثالث) قضايا النسب والقبيلة وقيمتها عند أبي‌طالب عليه السلام

إن ما تقدم يُعد بعض أساليبه المختلفة التي استفاد منها في دفاعه عن النبي، وهنا يتم التركيز بنحو خاص عن أصل استفادته من قضايا النسب والقبيلة. على أي حال فإن مفهوم القبيلة يُعد من المفاهيم المهمة في حياة العرب عموماً فهي عبارة عن وحدة اجتماعية متماسكة من الأفراد الذين يرجعون إلى أصل يجمعهم بالنسب، وتبرز فيها ظاهرة العصبية لأفرادها وهذه العصبية على نوعين:

- عصبية الدم، وهي أساس القرابة في البيت الواحد، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانوا أسرة واحدة.
- عصبية الإنتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك إنحدرت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه من نسله.[٥٧]

والقبيلة عند علماء الأنساب تكون بعد الشعب الذي تنحدر منه القبائل، وقل العمارة التي تأتي بعدها البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة. فالشعب هو النسب البعيد كعدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم وبني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي‌طالب وبني العباس وجعل بعضهم مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل. إلا أن هناك إختلاف في هذا التقسيم من زيادة ونقصان وتقديم وتأخير في المراتب[٥٨] لا يهمنا منها إلا المفهوم العام لهذا الترتيب والقاسم المشترك بين مراتبه، وهو أن كل مرتبه منه فإنها تمثل إنتماءاً إلى جد أو أب يجمع من تحته، حتى ينتهي الأمر بالأسرة ـ البيت ـ التي هي أصغر وحدة في القبيلة.[٥٩]

وعلى هذا الأساس والمهم في الأمر كله هو أن أصل الشعور بالإنتماء كان موجباً للحفاظ على هوية هذه القبيلة وأعرافها وتقاليدها، والدفاع عن جميع أفرادها، ورعاية قيمها الإجتماعية من قبل أبنائها. وكما أشرنا سابقاً بأن مخالفة تلك القيم يعد قبيحاً ومعيباً، بل وإن إرتكب الفرد منها جريمة

٥٦. أنظر منها على سبيل المثال: ديوان أبي طالب، ص٢٦ و٥٥ـ٥٦ و٦١ـ٦٢ و٧٥ـ٧٧ وغير ذلك من المواضع الأخرى من ديوانه.

٥٧. تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٥٩.

٥٨. المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٣١٨ـ٣٢٠.

٥٩. المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٣٢٠.

ترفض أن تتحمل القبيلة نتائجها، فإن فاعلها قد يُطرد من قبيلته ويسمى في هذه الحال طريداً، ويتم إعلان خلعه منها في المواسم العامة.[٦٠]

والأمر الآخر المهم هو أن مراعاة الإنتساب القريب، بل وحتى البعيد يعد قيمة من القيم الإجتماعية المطلوبة في مجتمع العرب قبل وبعد الإسلام. الأمر الذي كان أبوطالب قد استفاد منه، بل وركز عليه في دفاعه عن النبي أمام أعدائه من نفس قومه ومن حالفوهم لعداوته. ومما جاء في شعره من تلك المفردات:

١. الأخوّة

الأخ أصله أخو فيجمع إخوة وإخواناً[٦١] وقد شكلت الأخوّة في ذهن أبي‌طالب قيمة إجتماعية تجب رعايتها وإبراز المشاعر لها كأبسط حق من حقوق رعايتها، ولم يغفل بطبيعته عن رعايتها في شعره فنجده حين توفي أخوه الزبير قدم التزامه القيمي نحوه برثاءه بقصيدة، منها:

أسبلت عبرة على الوجنات قد مَرّتها[٦٢] عظيمةَ الحسرات
لأخٍ سيدٍ نجيبٍ لقَرمٍ[٦٣] سيدٍ في الذّرى من السادات[٦٤]

وهنا كان أبوطالب قد أدى ما عليه من واجب عاطفي تجاه أخيه، ونقل لنا صورة عن مراسيم عصره، وموقف الأخ حيال ظاهرة فقد الأخ وما ينبغي تقديمه كقيمة أصيلة في حياتهم الإجتماعية. وقدم نفس الصورة في شعر نُسب إليه في ديوانه من دون تحديد المخاطَب، ومن دون تحديد معنى الأخوّة فيه، هل هيه كأخوة الزبير ونسبه أم أنه يقصد بها شخصاً يوده كأخيه؟ وعلى أي تقدير فإنه موقف أخوة. قال فيه:

بكيت أخاً لأواءَ[٦٥] يُحمد يومُه[٦٦] كريم رؤوسَ الدارعين[٦٧] ضَروب[٦٨]

والأخوّة في فهم أبي‌طالب لها معنيان:

٦٠. تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٥٩ـ١٦٠.
٦١. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ج١، ص١٧٦.
٦٢. قد مرتها: أي أدرّتها وأجرتها.
٦٣. القرم: السيد.
٦٤. ديوان أبي طالب، ص٣٠.
٦٥. اللأواء: الشدة.
٦٦. يُحمد يومه: أيامه محمودة.
٦٧. الدارع: الذي يلبس الدرع.
٦٨. ديوان أبي طالب، ص٢١.

الأول الأخوّة القريبة: وهي التي تجمع بين شقيقين من أب أو أب وأم مباشرين أو أم، وقد أورد هذا المعنى في أشعاره. ومن شواهد هذا المعنى ما جاء أعلاه كما أنه جاء بأمثلة أخرى كان قد استفاد منها في الدفاع عن النبي وذلك حينما خاطب أخاه أبا لهب وجمع بني هاشم وأسرته ممن له صلة بهم وحثهم أن ينصروا النبي، فقال:

قل لعبد العزّى أخي وشقيقي وبني هاشم جميعاً عزينا
وصديقي أبي عمارة والإخـ وان طرّاً وأسرتي أجمعينا
فاعلموا أنني له ناصرٌ و مُجرٌ بصولتي الخاذلينا
فانصروه للرّحم والنّسب الأد نى وكونوا له يداً[٦٩] مُصلتينا[٧٠]

وهنا نجد أنه خاطب أخاه أبا لهب بالمعنى المباشر للأخوة كما أنه أتى بتعميم خطابه للأخوان طرّاً. والجدير بالذكر أنه يحثهم لنصرة النبي اعتماداً على اللُحمة النسبية القريبة، ويستخدم ألفاظاً من شأنها أن تحقق تلك النصرة كونها من القيم الإجتماعية السائدة آنذاك كالأخوّة المباشرة والنسب الأدنى وصلة الرحم.

وشاهد آخر في هذا المعنى نجده في مخاطبته لولديه علي وجعفرﷺ وحثه لهما لنصرة النبي في أبيات شعر، منها:

لا تخذلا وانصرا ابن‌عمّكما أخي لأمّي من بينهم وأبي
واللّه لا أخذل النبيّ ولا يخذله من بنيّ ذو حسب[٧١]

فالدقة التي استفاد منها أبوطالب إنما كانت في محلها، فهو يخاطب ولديه بأن ينصرا ابن‌عمهما ويذكرهم بأن عمهما هو أخو أبيهما المباشر من أبيه وأمه!!

والمعنى الثاني للأخوة في ذهن أبي‌طالب والذي استفاد منه أيضاً في دفاعه عن النبي هي الأخوّة في النسب غير المباشر، أي من غير الأبوين المباشرين وإنما من كان من البيوتات والبطون الأخرى الذين تجمعهم به قرابة. ومن يلقي نظرة في أشعاره يجد أنه استفاد من هذا المعنى في دفاعه، ولكن بطريقتين:

الأولى: هو خطابه الأخوي لعامة قومه من دون تحديد فئة منهم والإكتفاء بمن يجمعه وإياهم في نسبهم كخطابه لبني قصي عامة، وذلك بعد حصار قريش لبني هاشم في الشِعب كما ورد في أبيات منها:

٦٩. يداً: عوناً.

٧٠. مصلتين: شاهرين السيوف. ديوان أبي طالب، ص٩٢.

٧١. ديوان أبي طالب، ص٢٢.

على أنّ اخواننا وازروا بني هاشمٍ وبني المطّلب
هما أخوان كعظم اليمين أمرّا[٧٢] علينا بعقد الكرب[٧٣]

الى قوله:

زعمتم بأنّكم جِيرةٌ وأنكم إخوة في النّسب
فكيف تعادون أبناءه وأهل الديانة بيت الحسب؟[٧٤]

والثانية: هو خطابه الأخوي لفئات مشخصة من قومه وتحديد المقصود بالأخوّة من بيوتات قومه بالإسم، وهذا الخطاب أوسع من الأول ونجد له ذكراً في أشعاره كما في تحديده لبني عبد شمس ونوفل بقوله:

فيا أخوينا عبد شمس ونوفلاً فإياكما أن تعبثا بيننا حرباً[٧٥]

وخطابه الآخر لهما أيضاً بقوله:

أرى أخوينـــا مـن أبينا وأمّنا إذا سُئلا قالا: إلـى غيرنا الأمر
بلى لهما أمرٌ و لكن تجرجّما[٧٦] كماجُرجمت من رأس ذي العلق الصّخر
أخُصُّ خصوصاً عبد شمس ونوفـلاً هما نبذانا مثـل ما نبذ الجمر

الى قوله:

هما غمزا للقوم في أخويهما فقد أصبحا منهم أكفّهما صِفرُ[٧٧٧٨]

فنجده في أبياته هذه يُعرّف بني عبد شمس ونوفل على أنهم أخوة لهم ولكن يعيبهم بأنهم لا يرغبون نصرة النبي وإنهاء معاداته بل ومساومته بإستبدال النبي بعمارة بن الوليد، وأنهم يقولون بأن الأمر ليس بأيدينا وإنما هو بأيديهم ولكنهم أبوا إلا عداوته.

والشاهد الآخر مما نأتي به في المعنى الثاني للأخوة، قوله:

ألا أبلغا عني لؤياً رسالة وما تُغني بجقّ رسالةُ مرسل
بني عمّنا الأدنين تيماً نَخُصُّهم وإخواننا من عبد شمس ونوفل
أ ظاهرتموا قوماً علينا أظنّةً[٧٩] وأمرٍ غويٍّ من غواةٍ وجهَّل؟[٨٠]

---

٧٢. أمرّا: أحكما وأشدّا.

٧٣. الكرب: الحبل.

٧٤. ديوان أبي طالب، ص١٧ـ١٩.

٧٥. ديوان أبي طالب، ص١٩.

٧٦. تجرجما: إنحدرا وسقطا، والمعنى أنهما إنحدرا وسقطا سقوط الحجر من ذي علق، وهو جبل لبني أسد.

٧٧. صِفر: خالية.

٧٨. ديوان أبي طالب، ص٤٧ـ٤٩.

٧٩. أظنة: مظنونون، متّهمون، والمعنى أنهم اتّبعوا قوماً متّهمين.

٨٠. ديوان أبي طالب، ص٧٥ـ٧٦.

والقول الأخير الذي نذكره هنا في هذا المعنى ما كان موجهاً إلى قومه من قريش ومناداته لتيم وهصيص ومخزوم بالأخوّة وهو يذكر ظلمهم وعقوقهم وحصارهم لبني هاشم في الشِعب بقوله:

هم انتهكوا المحارم من أخيهم ولیس لهم بغير أخٍ حريم

إلى قوله:

بنو تيم تؤازرها هصيص ومخزوم لها منّا قسيم[٨١]

والملاحظ مما سبق من خطابه لبني نوفل وعبد شمس أنه يخاطب النسب القريب لأنه يجتمع وإياهم عند عبد مناف وهو جد عبدالمطلب بعد أبيه هاشم. وأما خطابه لتيم وهصيص ومخزوم فإنما هو أبعد وذلك لأنه يلتقي بهم عند كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (قريش) لأن مخزوم يكون ابن‌يقظة بن مرة بن كعب. وأما تيم فهو ابن‌مرة بن كعب وأما هصيص فهو ابن‌كعب مباشرة وأما أبوطالب فهو يرجع لعبد المطلب ثم لهاشم ثم لعبد مناف ثم لقصي ثم لكلاب ثم لمرة ثم لكعب الذي يجتمع به معهم.

وخلاصة أسلوبه في الإستفادة من الأخوّة في دفاعه عن النبي أنه كان يستفيد من الأخوّة القريبة في خطاباته المباشرة للأفراد بأعينهم كأبي لهب أو غيره. وأما استفادته من المفهوم الآخر للأخوة فكان أوسع نطاقاً إذ كان مخاطبيه في هذا المعنى الجماعات من البطون والبيوتات لا الأفراد.

٢. العمومة[٨٢]

تحمل العمومة في الذهنية العربية مكانة سامية باعتبارها قيمة عليا لا مجال للمجاملة في حين المساس بها. وللعمومة وأبنائها حق الرحم سواء أ بعُدت نسبة هذه العمومة أم قربت. ولها ما لها من حق في آدابهم ورسومهم. حفظ لنا منها أبوطالب بعضها كالدفاع عنها ونصرتها وجاء هذا في بعض أشعاره. والملفت للنظر أنه كما مر سابقاً في مفهوم الأخوّة أنها تنقسم إلى مباشرة وغير مباشرة، فإن العمومة هنا تنقسم وبنفس اللحاظ إلى مباشرة وأخرى غير مباشرة. والمباشرة هنا هي كون العم أخ الوالد بطبيعة الحال وأبناء العم هم أولاده. وأما غير المباشرة فهي ما لم تكن كذلك وإنما كانت لإشتراكهم في جد بعيد أو قريب حتى أنها ـ العمومة ـ كمفهوم غير مباشر كانت تشمل جميع أفراد القبيلة من البيوتات الأخرى كما كان يشملها معنى الأخوّة غير المباشرة فكان العرب يطلق عليها أخوة وعمومه في الحين ذاته، وهذا ما يتجسد في أشعار أبي‌طالب. والمهم هنا هو نوع الشواهد التي صورت المواضع التي استفاد منها في إثارة مفهوم العمومة للدفاع عن النبي وهذا ما يأتي بيانه:

---

٨١. ديوان أبي طالب، ص٧٩ـ٨٠.

٨٢. العمومة: جمع عم وهي مصدر أيضاً. (أنظر: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ج١، ص١٧٦)

١/١. العمومة المباشرة

هذا المعنى كان يستفيد منه أبوطالب كثيراً في دفاعه عن النبي ولكن الملفت للتأمل هو أن استخدامه للعمومة لم يكن يقصد به عمومته بما هو أبوطالب وإنما كان يقصد به أخوانه من عمومة النبي بإعتباره المحور والمثير لهذا الإستخدام. ومن شواهد ذلك أنه كان مطمئناً على النبي قبل بعثته وهو بين أعمامه في قصيدة يروي بها خبر رحلته الى الشام والنبي برفقته وهو في سنّ الثانية عشر تقريباً بإنشاده لأبيات، منها:

إنّ الأمين محمّداً في قومه عندي يفوق منازل الأولاد

إلى قوله:

راعيت فيه قرابة موصولة وحفظت فيه وصيّة الأجداد
ودعوته للسّير بين عمومة بيضِ الوجوهِ[٨٣] مصالتٍ[٨٤] أمجاد[٨٥]

كما نجد هذا المعنى في أبيات أخرى منها:

ذكرتُ أباه ثمّ رقرقتُ عبرةً تجودُ من العينينِ ذات سِجامِ[٨٦]
فقلت: ترحّل راشداً في عمومةٍ مواسين في البأساءِ غير لئامِ[٨٧]

وفي القصيدتين يجسد مدى اعتماده على إخوته أعمام النبيﷺ في حفظ ابن أخيهم اليتيم، وفي القصيدة الثانية يجسد موقفهم في حمايته ومواساته من قبل أعمامه واطمئنانه عليه في سفره هذا حين أراد بعض أهل الكتاب قَتله.

هذا كله قبل البعثة، وأما استفادته من معنى العمومة المباشرة بعد البعثة فتجسده خمسة شواهد بدقة:

في مناسبة كان يحث ولداه علياً وجعفر لنصرة ابن عمهما في أبيات منها قوله:

لا تخذلا وانصرا ابن عمّكما أخي لأمّي من بينهم وأبي
واللّه لا أخذل النبيّ ولا يخذله من بنيّ ذو حسب[٨٨]

٨٣؛ بيض الوجوه: الكرام.

٨٤؛ المصالت: الماضون في حوائجهم.

٨٥؛ ديوان أبي طالب، ص٣٨ـ٣٩.

٨٦؛ سِجام: سيلان.

٨٧؛ ديوان أبي طالب، ص٨٧ـ٨٨.

٨٨؛ ديوان أبي طالب، ص٢٢.

في مناسبة كان يحث أخاه أبا لهب لنصرة النبيﷺ ويذكّره بقرب نسبه منه وأنه عمه وأن القيم الإجتماعية تقتضي نصرته وأن لا يترك بحال وذلك في أبيات، منها:

وإنّ امرأً ابوعتيبةَ عمّه لفي معزل من إن يُسام المظالما[89]

ويكرر خطابه لأخيه أبي لهب ويحثه للنصرة في أبيات يصف فيها العديد من القيم الإجتماعية ويصف معنى العمومة المباشرة بدقة شديدة في أبيات، منها:

فلا تركبنّ الدهر منه ذمامةٌ وأنت امرؤٌ من خيرِ عبدِ منافِ
ولا تتركنه ما حييت لمُعظِم[90] وكن رجلاً ذا نجدةٍ وعفافِ
يذود العدا عن ذروة هاشمية الأفهام في الناس خيرُ إلاف
فإنّ له قربى لديك قريبة وليس بذي حلف ولا بمضاف
ولكنّه من هاشمٍ في صميمها إلى أبحرٍ فوق البحورِ طوافِ[91]
وزاحم جميع الناس عنه وكن له وزيراً على الأعداء غير مُجاف[92][93]

فهو ينصحه بعدم إرتكاب ما هو مذموم من الأفعال بسبب عدم نصرته لإبن أخيه النبي كي لا يبقى هذا الفعل الذميم مدى الدهر، ويعلل له السبب ويقول له: بأنك يا أبا لهب من خير عبد مناف وانصره وكن رجلاً ذا موقف ومساعدة وعفاف أيضاً، ودافع عن بني هاشم وأن النبي هو قريب منك نسباً وليس حليفاً من قوم آخرين، ولا هو بمضاف كالموالي وغيرهم وإنما هو من بني هاشم بل من صميمها.

والشاهد الثالث الذي أورده أبوطالب في هذا المعنى كان في أبيات يخاطب فيها عشيرته قريشاً، ويذكر ظلمهم وعقوقهم وحصارهم في الشِعب، وإرادتهم لقتل النبيﷺ ومنها قوله لهم على سبيل التحذير:

فمهلاً قومنا لا تركبونا بمظلمة لها أمر عظيم
فيندم بعضكم و يذلّ بعض وليس بمُفلح أبداً ظلوم

[89]. ديوان أبي طالب، ص٧٨ـ٧٩.
[90]. مُعظِم: الأمر العظيم.
[91]. طواف: عوالٍ، طائفون.
[92]. المُجافي: المُعرِض.
[93]. ديوان أبي طالب، ص٥٥ـ٥٦.

إلى غيرها من أبياته التي يحذرهم فيها ثم يهددهم، أنه لن يتركه يُقتل حتى تمنعه العموم والأخوال وذلك بقوله:

ويصـرع حوله منّا رجال وتمنعه الخؤولة والعموم[٩٤]

أما الشاهد الأخير فإنه قد جمع فيه بعض المخاطبين من أعمامه بالخصوص، كما أشار لغيرهم وعمّم خطابه على جميع بني هاشم بقوله:

أوصي بنصر النبي الخير مُشهِدَهُ عليّاً ابني وعمّ الخير عبّاسا
وحمزة الأسد المخشيّ وصولته وجعفراً أن تذودوا دونه النّاسا
وهاشماً كلها أوصي بنصرته أن يأخذوا دون حرب القوم أمراسا[٩٥]

وبالطبع فإن المقصود من الأعمام المباشرين هنا من كان مسلماً كالحمزة أو لم يكن معادياً وتأخذه الحمية العصبية في الحفاظ على القيم الإجتماعية.

٢/٢. العمومة غير المباشرة

وأما هذا المعنى فكان ينطبق على جميع قريش من غير أعمامه المباشرين ولم يغفل أبوطالب بطبيعته في الإستفادة من هذه القيمة الإجتماعية في دفاعه عن النبيﷺ أيضاً كما نجد في أبياته التي يخاطب فيها بني لؤي ويصفهم بأبناء العم ويخص منهم تيماً ويذكر بني عبد شمس وبني نوفل على أنهما اخوة وينطبق عليهم معنى أولاد العم كذلك:

ألا أبلغا عنّي لؤياً رسالةً بحقٍّ، وما تُغني رسالة مُرسل
بني عمّنا الأدنين تيماً نخصّهم وإخواننا من عبدِ شمسٍ ونوفلِ
أ ظاهرتموا قوماً علينا أظنّةً وأمرٍ غويٍّ من غواةٍ و جُهّلِ؟[٩٦]

وكذلك في خطابه لأخيه أبي لهب في أبيات منها أنه يحثه على نصرة النبيﷺ ويذكر له جملة من القيم الإجتماعية مما تجب رعايتها والتي تدعوه للنصرة، منها موقف الرجولة والصفات الكريمة، ومنها أنه ينصحه بأن يخاطب قريشاً بالعمومة التي بينهم، بقوله:

وإن غَضبت منه قريش فقل لها بني عمّنا ما قومُكُم بضعاف[٩٧]

٩٤. ديوان أبي طالب، ص٧٩ـ٨٠.
٩٥. ديوان أبي طالب، ص٥٣.
٩٦. ديوان أبي طالب، ص٧٥ـ٧٧.
٩٧. ديوان أبي طالب، ص٥٥ـ٥٦.

أي يا أبناء عمومتنا من قريش، اعلموا بأن بني هاشم ليسوا بضعفاء.

وخلاصة القول في مفهوم العمومة أنها تشترك في معناها القيمي مع الأخوّة وأنها كما هو الحال في الأخوّة تنقسم الى مباشرة وغير مباشرة. والمهم في الأمر أنه قد استفاد من معناها المباشر في دفاعه عن النبي وحمايته من الأخطار المهددة له من أهل الكتاب قبل البعثة. وأما بعد البعثة فقد استفاد منها أيضاً ولكن في قبال قومه من قريش. وأما استفادته من العمومة غير المباشرة فكانت في حدود الوقوف أمامهم وفي قبالهم في دفاع بني هاشم عنه أمام أعدائه من قبيلته ومن حالفها.

٣/٢. الخؤولة[٩٨]

من ينظر في تاريخ العرب قبل الإسلام أو يفتش في كلامهم وأدبياتهم يتضح له أن الخؤولة تحتل مرتبة أدنى من تلك التي تحتلها العمومة في كونها إحدى القيم الإجتماعية التي تشكل عصبة الفرد وما يبتنى عليه العصبية القبلية. ومن لطيف الأمر أنه وردت بعض الكلمات في ذم الخؤولة ومدح العمومة في بعض كلماتهم منها:

إذا كنت في سعد وأمّك منهم غريباً فلا يغررك خالك من سعد
فإنّ ابن أخت القوم مصغ أناده[٩٩] إذا لم تزاحم خاله بأبٍ جلد[١٠٠]

والذي يهمنا هو البيت الثاني منها حيث أنه يمدح العمومة ويذم الخؤولة ولا يعتبر لها حساباً عصبياً وبالخصوص إذا كان الأخوال من قوم آخرين أي غرباء. وكذلك فإنه فيما روي أنه لما حضرت عبدالله بن العباس الوفاة، قال له ابنه علي بن عبدالله:

بأي الرجلين تأمرني أن ألحق؟ (يعني عبدالملك بن مروان وعبد الله بن الزبير)

قال:

يا بُني الحق بابن عمك عبدالملك فإنه أقرب.

ثم وصف له صفات كل منهما مما يؤهله للإتباع الى أن تمثل بالقول المشهور عندهم:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد[١٠١]

٩٨. الخال جمعه أخوال والمصدر خؤولة. (أنظر: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ج١، ص١٧٨)

٩٩. عند البلاذري وردت أناده ويعني ناداه، وعند الراغب وردت إناءه.

١٠٠. أنساب الأشراف، ج١٢، ص١٣١؛ الغارات، ج٢، ص٥٧١؛ محاضرات الأدباء، ج١، ص٤٤٢ـ٤٤٣؛ تاريخ الإسلام، ج٤٠، ص٣١١.

١٠١. مجهول، أخبار الدولة العبّاسيّة، ص١٣١.

وقد ورد أن بعضهم كان يتمثل بهذا البيت لشهرته[١٠٢] حيث أنه يعبّر عن وجهة نظرهم تجاه المسألة. ولكن رغم هذا فإن لنفس الخؤولة قيمة عالية في نفوسهم وبالخصوص فيما إذا كانت هذه الخؤولة ليست بغريبة وكون الأخوال من نفس القوم وعصبتهم. وفي كل حال فإن أبيطالب كان يرعى لها حسابها ومكانتها حتى أنه ورد في شعره رثاء خاله زاد الراكب أبي أمية بن المغيرة المخزومي بقصيدتين في ديوانه كحد أقل[١٠٣] كما أنه رثى خاله هشام بن المغيرة[١٠٤] وقد ورد في رثائهما تفاخره بهما في مضامين جُلها قيم اجتماعية ككفالة الأيتام والأرامل وعون الفقير وغيرها مما يدعو للفخر. كما أنه تفاخر على أبي سفيان بخاله هشام بن المغيرة والوليد وذم خاله ـ أبي سفيان ـ عمرو بن مرثد بقوله:

وخالي هشام بن المغيرة ثاقب إذا همّ يوماً كالحسام المهنّد
وخالي الوليد العدل عالٍ مكانُه وخال أبي سفيان عمرو بن مرثد[١٠٥]

كما أنه قد استفاد من مفهوم الخؤولة في دفاعه عن النبيﷺ وقد مرّ بنا قوله:

ويُصرع حوله منّا رجال وتمنعه الخؤولة والعموم[١٠٦]

وذلك في معرض خطابه لقريش وذكر ظلمهم وتهديده لهم إذا ما ارتكبوا ما لا يُحمد عقباه من أذى النبي.

والملاحظة الجديرة بالذكر هنا هو أنه إنما كان في جميع ما سبق يخاطب قومه أفراداً وجماعات على أساس تحديد شخص المخاطب أي أن شخص المخاطب معلوم، بيد أن له خطابات أخرى لقومه يكون فيها شخص المخاطب مجهول الاسم ولا يُعلم فيها إلا انتسابهم لبعض كالرهط والأسرة[١٠٧] والقرابة[١٠٨] والقوم يقصد فيها عصبته ومن يشترك بنسبه معهم رغم أن استفادته من هذه المفاهيم تأتي ضمن سياق خطابه لمن هو معلوم ومشخص.

١٠٢. إمتاع الأسماع، ج٣، ص٢٤٣ و ج٦، ص١٢؛ محاضرات الأدباء، ج ١، ص٤٤٣.
١٠٣. ديوان أبي طالب، ص٤٥ـ٤٦ و٢٤٩.
١٠٤. ديوان أبي طالب، ص٤٦ـ٤٧.
١٠٥. ديوان أبي طالب، ص٤٢.
١٠٦. ديوان أبي طالب، ص٧٩ـ٨٠.
١٠٧. ديوان أبي طالب، ص٨٠ـ٨١.
١٠٨. ديوان أبي طالب، ص٢١.

النتيجة

كان العمل في هذه المقالة مُنْصباً للبحث في ديوان أبي‌طالب والإقتصار على أشعاره التي أنشدها في مواضع مختلفة سعياً للبحث عن إجابة عن السؤال التالي: ما هي مكانة القيم الإجتماعية في أساليب دفاع أبي‌طالب عن النبيﷺ؟ وبعد التفتيش في الديوان وجدنا أنه كان قد استفاد من عدة أساليب كانت كفيلة بحفظ النبيﷺ ودعوته عن طريق إبعاد الشر عنه أو تقليله على أقل تقدير وبعبارة أخرى الإبقاء على حياته. ومن بين تلك الأساليب كانت استفادته من الجانب العاطفي في خطابه لقومه كالنصيحة تارة والعتب تارة والدعاء على أعدائه ومن ظلمه تارة أخرى وما الى ذلك. كما أثمرت استفادته من الجانب الإعلامي بتصعيد الخطاب الى مستوى أعلى عن طريق تهديداته المستمرة وتحذيرانه لقومه وتبليغ رسائله الصريحة لقومه وغير ذلك. كما لا شك في أنه قطف ثمار استفادته من أسلوب آخر وهو محاولة التركيز على الخصال الحميدة في القوم ومدحها والحث على إثارتها فيهم وذم كل ما هو ذميم وما هو مستقبح عرفاً وشرعاً. وكان التركيز أيضاً في هذه المقالة على القيم الإجتماعية الخاصة بقضايا النسب والقبيلة كمفهوم الأخوة والعمومة الذين كانا يشكلان قيمة عليا عندهم. وكان قد استفاد من معنى الأخوة والعمومة القريب والمباشر في نسبته وكذلك من معناهما البعيد وغير المباشر كخطابه لباقي بيوتات قريش بالأخوة والعمومة وأبناء العمومة على سبيل المثال. كما أنه قد استفاد من مفهوم الخؤولة التي كانت لها مكانة سامية أيضاً عندهم رغم أنها تعتبر عندهم أقل شأناً من الأخوة والعمومة. وفي هذه المناسبة نلفت نظر الباحثين الى إمكانية وضرورة كشف الجوانب المختلفة والجديدة في حياة أبي‌طالب من خلال البحث في المصادر المختلفة ومنها ديوانه الذي يحمل بين طياته مادة وفيرة فيما يخص القيم الإجتماعية الأخرى من غير قضايا النسب والقبيلة.

المصادر

١. تاريخ مدينة دمشق، ابن‌عساكر، علي بن حسن، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر،ط٢،١٤١٥ق.
٢. أعيان الشيعة، الأمين، محسن، تحقيق حسن الأمين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٣ق.
٣. أنساب الأشراف، البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت: دار الفكر، ١٤١٧ق/١٩٩٦م.
٤. ديوان أبي‌طالب، التونجي، محمّد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤ق/١٩٩٤م.
٥. الغارات، الثقفي، إبراهيم بن محمّد، تحقيق: جلال‌الدين الحسيني الأرموي، طهران: لجنة الآثار الوطنية، ١٩٧٤م.

٦. تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، الذهبي، محمّد بن أحمد، تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٣ق/١٩٩٣م.
٧. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي‌الأرقم، ١٤٢٠ق.
٨. تاريخ الدولة العباسية، طقوش، محمّد سهيل، بيروت: دار النفائس، ط٧، ١٤٣٠ق/٢٠٠٩م.
٩. الإصابة في تمييز الصحابة، العسقلاني، ابن‌حجر، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود ومحمّد علي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمّد علي بيضون، ط١، ١٤١٥ق.
١٠. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، العسكري، حسن بن عبدالله، تحقيق: عزة حسن، بيروت: دار صادر، ١٤١٣ق.
١١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، علي، جواد، بغداد، ط٢، ١٤١٣ق/١٩٩٣م.
١٢. مبانی جامعه شناسی، کوئن، بروس، ترجمه: غلام عباس توسلی و رضا فاضل، تهران: سمت، ط٢٠، ١٣٨٧ش.
١٣. الدولة العباسية، مجهول، أخبار تحقيق: عبدالعزيز الدوري و عبدالجبار المطلبي، بيروت: دار الطليعة، ١٣٩١ق.
١٤. النزاع والتخاصم، المقريزي، أحمد بن علي، تحقيق: محمّد عبدالحميد النميسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠ق/١٩٩٩م.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی